الفن في عصر الوركاء

إن الفن في بلاد الرافدين في هذا العصر يظهر بعض التطورات الفريدة، إذ أن هناك المزيد من الأدلة على التي تشير إلى حصول تطورات على التركيبة الاجتماعية والتراتبية للوركاء تتضمن وجود أحيا مخصصة لممارسة حرف معينة فضلاً عن العثور على أقدم الأدلة التي تؤكد ممارسة الأعمال الفنية لنحت وتمثيل الأشخاص ممن يتربعون قمة الهرم الاجتماعي في المدينة بشكل تماثيل نفذت على الحجارة والأختام الأسطوانية.

وقبل التفصيل في موضوع المنحوتات والأختام نشير إلى فخاريات عصر الوركاء وجمدة نصر، والتي تميزت بأنها كانت سمجة الصناعة سميكة الجدران معمولة على الدولاب والقليل منها معمول باليد، وهي ليست ملونة وليست مزخرفة بل مطلية بطلاء ناعم من نفس الطينة التي صنعت منها الآنية وتتميز فيها ثلاث أنواع، نوع له طلاء احمر اللون وتتفاوت ظلال هذا اللون الأحمر من اللون الأحمر الفاتح إلى الأحمر البرتقالي والأحمر العميق والأحمر والبني، والنوع الثاني له طلاء رمادي اللون وفي حالات نادرة يكون هذا الطلاء أسود اللون بسبب درجات الحرارة العالية أثناء الفخر في الكورة، أما النوع الثالث فهو بسيط وعادي ويخلو من الطلاء والزخارف، سطوح الأواني ناعمة ومدلوكة ولكن الأواني التي استخدمت في الطقوس الدينية كانت خشنة، أغلب الأشكال جرار وأواني كبيرة الحجم وصغيرة الحجم. ينظر الشكل الآتي :

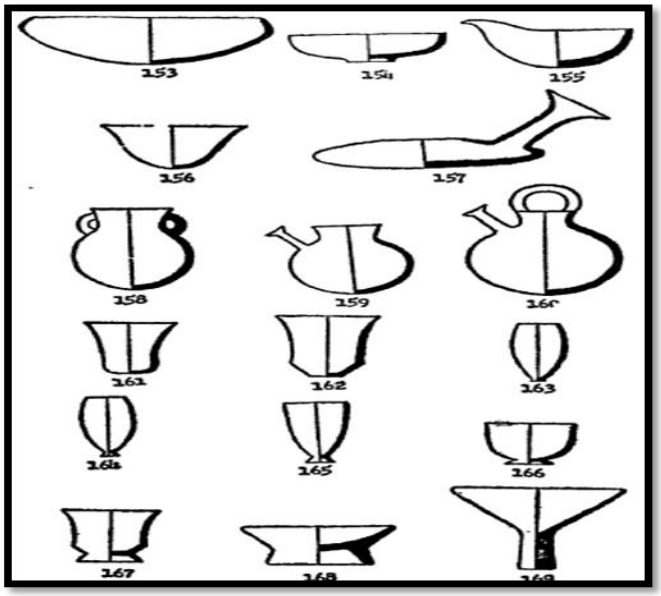

أما عصر جمدة نصر، فهو العصر الذي يأتي مباشرة بعد عصر الوركاء، ويشغل المدة الزمني من حوالي ٣٢٠٠-٣٠٠٠ ق.م أو ٣١٠٠-٢٩٠٠ ق.م ، وسمي بهذا الاسم نسبة إلى موقع صغير يقع على بعد ١٠٠كم جنوب بغداد، بين دجلة والفرات إلى الشرق من مدينة بابل، وهو قريب من موقع مدينة(كيش) تل الاحيمر الشهيرة. وفيه ظهرت مجموعة من الأواني جيدة الصنع جميلة المنظر ناعمة الملمس ذات طلاء اجاصي اللون ومدلوكة ومعمولة على الدولاب وملونة بعدة ألوان، وتغلب على الأشكال الجرار الكبيرة والطاسات والأقداح والأواني العميقة المزينة بخارف هندسية أو زخارف طبيعية بلون أسود أو أحمر أو بكلا اللونين على سطح الإناء ذي اللون الأصفر الفاتح. بعض الجرار لها عرى، وقد حلت هذه الصناعة الفخارية محل فخاريات العصر

السابق الخالية من النقوش والزخارف وشاع استعمالها في بلاد الرافدين والمناطق المجاورة. ينظر الشكل الآتي:

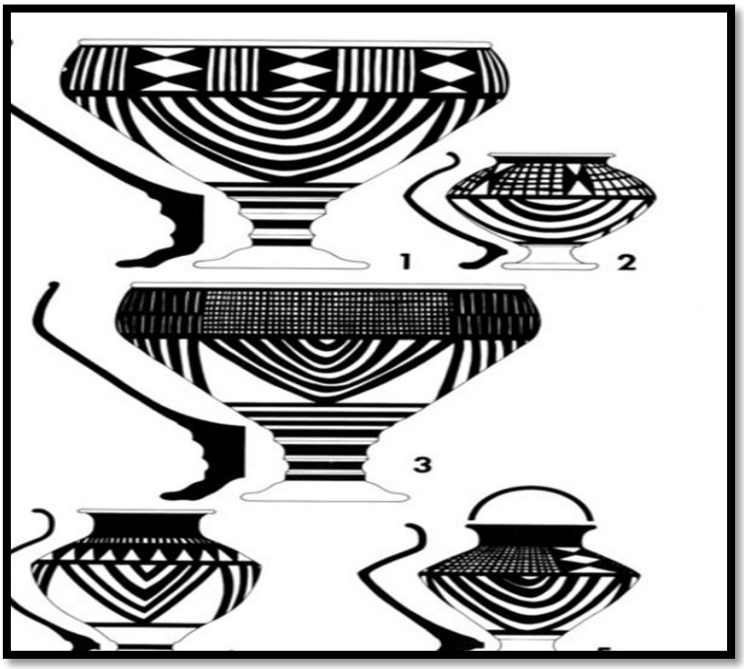

فن النحت

يقسم فن النحت إلى ثلاثة أقسام كما أشرنا سابقاً، وهي النحت المجسم والنحت البارز والنحت الغائر.

١- النحت المجسم

تعود البدايات الأولى لفن النحت المجسم إلى العصر الحجري الحديث من الألف التاسع ق.م، وأول النماذج المعروفة جاءت من موقع نمريك كما أشرنا في الفصول السابقة.

من عصر الوركاء وردت عدة نماذج من أبرزها ما يعرف برأس الفتاة من الوركاء ، وهو مصنوع من الرخام الأبيض يبلغ ارتفاعه ٢٠ سم، أي بالحجم الطبيعي تقريباً، ومنفذ بأسلوب واقعي. ويتسم هذا الوجه بالتعبير والحياة، فضلاً إلى اجتهاد النحات لإظهار العظمة والوقار على ملامحه، حتى أعتقد البعض أنه ربما يمثل آلهة سومرية. يظهر في قمة الرأس شق لتثبيت شعر مستعار أو تاج، والحواجب متصلة ومعقودة فوق الأنف وكذلك محاجر العيون مجوفة، ربما كانت مطعمة بأحجار كريمة، ومقدمة الأنف مكسورة والفم صغير، وهناك ملامح الابتسامة على الوجنتين، كما يوجد ثقبان أسفل الأذنين، ينظر الشكل الآتي :

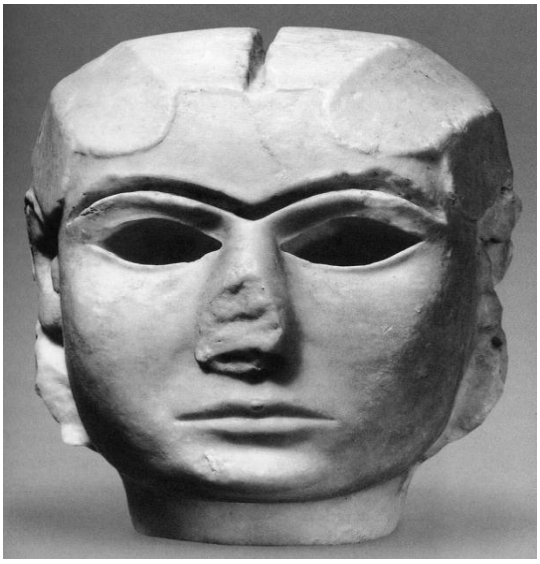

النموذج الثاني تمثال لرجل من الوركاء مصنوع من حجر الرخام الرمادي محفوظ حالياً في المتحف العراقي. يبلغ ارتفاعه ١٨ سم ولم يبق منه سوى الجزء العلوي. وهو يضع يده على صدره ويرتدي غطاء رأس (عمامة) وله لحية كثيفة طويلة تصل إلى منتصف الصدر مصففة بشكل خيوط أفقية والعيون مطعمة بأحجار كريمة ومثبتة بالقير، ومقدمة الأنف مكسورة، ويرتدي وزرة مثبة إلى وسطه بحزام عريض. وهو منفذ بأسلوب واقعي. ينظر الشكل الآتي :

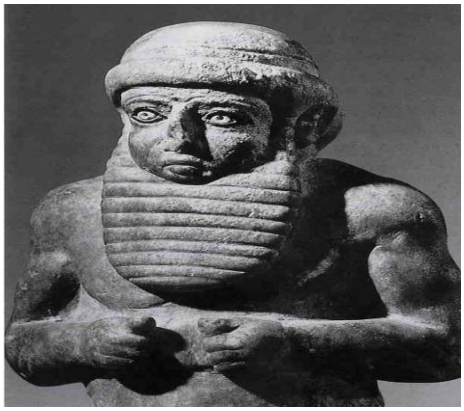

٢- النحت البارز

تعد مسلة صيد الأسود من بين أبرز نماذج النحت البارز المعروفة من عصر الوركاء وجمدة نصر، عثر عليها في مدينة الوركاء، معمولة من حجر البازلت الأسود المخضر اللون، قياساتها (٦٠×٨٠ سم) وهي محفوظة في المتحف العراقي. ربما كانت تؤلف جزء من مسلة كبيرة فقدت أجزائها الأخرى. ولها سطح مصقول بشكل جيد بالرغم من صلابة الحجر الشديدة.

أستغل سطح الحجر لتنفيذ مشهد صيد الأسود، في القسم العلوي يظهر رجلاً يمسك رمحاً بيده ليطعن به أسداً ينتصب على قوائمه الخلفية. ويشد الرجل شعر رأسه وله لحيه كثة وطويلة ويرتدي وزرة تصل إلى الركبة. المشهد الثاني الأسفل يظهر الرجل نفسه وهو بحجم أكبر مستخدماً آخر يتمثل بالقوس والسهم الذي يسدده على الأسد. ويبدو أن المشهد يمثل بطلاً يصطاد الأسود لتخليص المنطقة من شرورها. وقد نفذ المشهد بأسلوب تجريدي. ويبدو أن الفنان ليس له

دراية بفن المنظور، حيث تكون الأجسام القريبة بحجم أكبر من الأحجام البعيدة، إلا أن هذه الظاهرة كانت نادرة في الفن العراقي القديم. ينظر الشكل الآتي :

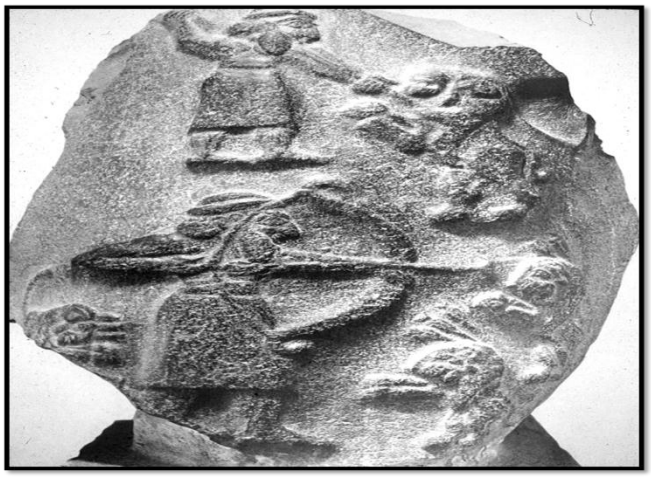

النموذج الثاني يمثله ما يعرف بالإناء النذري الذي عثر عليه في مدينة الوركاء وهو من المنحوتات المهمة والجميلة، مصنوع من حجر الرخام، ويبلغ ارتفاعه حوالي(١٠٥ سم)، وهو على شكل مزهرية طويلة أشبه بالقدح، له قاعده مخروطية الشكل وفوهة عريضة. زين سطح الإناء بمشاهد نفذت بالنحت البارز تمثل شعائر دينية تتعلق بالإلهة عشتار. وهي مقسمة إلى أربعة حقول أفقية تفصل بينهم فاصلة تمثل خط الأرضية الذي يتحرك عليه شخوص الحدث. ويمكن تتبع مراحل هذا الطقس الديني من الأعلى إلى الأسفل: إذ تدور المنحوتات حول الإناء من خلال مشهد يمثل موكب ديني، باستعراض طويل لشخوص يقدمون القرابين والحيوانات المنذورة إلى الإلهة(انانا)، وقائد هذا الموكب يرتدي لباساً مصنوعاً من نسيج شفاف مشبك وبصحبته مساعدان احداهما يحمل سلة فاكهة، والآخر حزمة ملابس كبيرة، أسفل هذا الإفريز عدد كبير من الخدم يسيرون في المواكب ويحملون السلال والأباريق والجرار النذرية التي تحتوي الفاكهة والمشروبات، أما الإفريز الثالث فيضم قطيع أغنام منذورة وأسفل هذا الإفريز الرابع الذي يصور أصل الحياة كلها، وهو عبارة عن صف من السنابل وفسائل النخيل وكأنها فوق صفحة من الماء، والمجسدة بخطوط متعرجة في أسفل الإناء.

وإذا ما تم فحص الإفريزين الثالث والرابع بتمعن فإنها ربما تمثل أو ترمز للحياة الاقتصادية حيث وفرة المياه والمزروعات والحيوانات، بينما الإفريزين الثاني والأول فهما رمز لتكريس هذه الخيرات للآلهة التي كانت لها الدور الكبير في هذه الخيرات، ينظر الشكل الآتي :

أوانٍ حجرية

كما نود أن نشير إلى مجموعة من الأواني الحجرية من هذا العصر، منها إناء كشف عنه في مدينة أور الشهيرة، وهو عبارة عن طاسة منخفضة العمق مصنوعة من حجر السيتياتايت الأزرق المخضر اللون، وقد نحت على سطحها الخارجي نقش بارز يمثل خمسة ثيران نفذها الفنان بأجسام جانبية بينما ظهرت وجوهها بشكل أمامي. وأبدع النحات بإظهار الحركة في جسم الثور وأبرز عضلاته وبعض مفاصله، واهتم بتجسيد الانفعالات التي تبدو في وجه الثور من خلال القسوة في نظرات عيون الثيران وفي طيات أجفانها، وينظر الشكل الآتي:

ويلاحظ أن النقوش والمنحوتات البارزة على آنية هذا العصر مبالغ فيها من قبل الفنان، إذ تقترب من التجسيم وهذا ما يفسد مظهرية الإناء الخارجية، ويبدو هذا واضحاً من الإناء الحجري الذي عثر عليه في مدينة الوركاء وقد نقش بنقوش تمثل حيوانات برزت رؤوسها من سطح الإناء. ينظر الشكل الآتي:

وهذا يعني أن النحت يطغي على شكل الإناء كما أن الوضعيات المعقدة التي ينفذها النحات على الأنية زادت من تعقيدات الشكل ومن ثم أدى ذلك إلى الاهتمام بالأجزاء الصغيرة المعبرة، عن الفكرة وإهمال باقي أجزاء الشكل.

وأزدهر فن التطعيم في عصر الوركاء ومن أروع الأمثلة أبريق مصنوع من حجر الكلس مطعم بأحجار ملونة على شكل زخارف متمثلة بمجموعة وريدات محاطة بشريطين من الأعلى والأسفل ذات أشكال هندسية. ينظر الشكل الآتي:

الأختام المنبسطة والأسطوانية

تمثل الأختام بنوعييها المنبسطة والأسطوانية أبرز أنواع النحت البارز. والأختام هي بمثابة توقيع لصاحب الختم يضعه على مملكاته بمختلف أنواعها.

كانت الختم المنبسط عبارة عن شكل مخروط مقطوع القمة وذا قاعدة بيضوية وقمة مستديرة، ويكون دائري أو مربع الشكل، ظهرت أقدم نماذجه من العصر الحجري الحديث في مواقع جرمو والمغزلية وحلف، وشاعت في العصور اللاحقة حتى حلت محلها الأختام الأسطوانية. وعادة ما تكون مثقوبة حيث يوضع فيها خيط التعليق، يرسم على الوجه المنبسط رسوماً منحوتة بشكل معكوس وغائرة وتمثل هذه الرسوم أشكالاً بشرية وحيوانية ونباتية ومشاهد مختلفة. وقد استعملت هذه جنباً إلى جنب مع الأختام الأسطوانية، إلى أن تم تفضيل الأختام من النوع الأخير لأنها عملية أكثر. عموماً استعملت الأختام المنبسطة في مناطق أخرى مثل الاناضول وعيلام والخليج. ينظر الشكل الآتي:

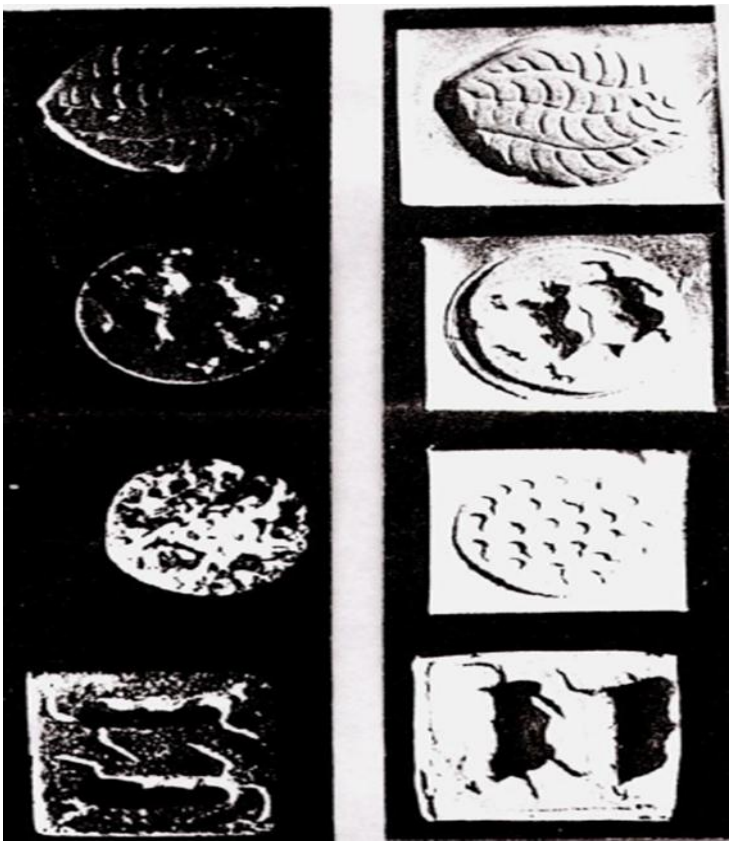

أما الختم الأسطواني فهو عبارة عن قطعة حجرية أسطوانية يوفر سطحها الخارجي مساحة للنقش أوسع بشكل ملموس من الختم المنبسط، ويكون الموضوع الإنشائي المنقوش بشكل عكسي على السطح الخارجي لسطح الختم الأسطواني عبارة عن شريط يعود فيلتقي مع بدايته، وحين يدحرج على الطين ينتج إفريزاً متصلاً، وسواء كان هذا الشكل من الأختام قد حصل بطريقة الصدفة أم أنه أخترع عن وعي، فإنه منذ البداية يعكس الصفة السومرية إلى حد كبير وظل على الدوام الطابع المميز للحضارة السومرية وبالطريقة التي لا يوازيها إلا اختراع الكتابة.

كانت هذه القطعة الحجرية الأسطوانية مثقوبة من الوسط لغرض تعليقها على الرقبة ولا يتجاوز حجمها ٥ سنتمترات، وقد ظهرت في عصر الوركاء في نفس المدة الزمنية التي ظهرت فيها الكتابة بشكل الأول الصوري.

للأختام الأسطوانية جملة مميزات جعلتها متفردة عن باقي الفنون وهي الشكل الأسطواني الذي يساعد على التدحرج على اللوح الطيني بسهولة، وإمكانية نسخ على الأسطوانة على اللوح الطيني، لذا فقد أنتجت هذه الأختام أشكالاً زخرفية نتيجة تدحرجها على اللوح لمرات عديدة، وصغر حجم الختم ساعد على حمله بسهولة ونقله إلى أماكن بعيدة مما ساعد على انتشارها ونتيجة لكل هذه المزايا فقد أصبحت الأختام كالطلسم(لطرد الأرواح الشريرة) وكذلك أصبحت إشارة لملك خاص أو لسلالة معينة وحلت محل التوقيع في وقتنا الحاضر.

أعطت الأختام أعداداً هائلة من الموضوعات المصورة بأحجام ذات مساحة صغيرة وكبير، يستطيع المرء أن ذلك بأنه المبدأ المميز للفن السومري، كما أنها ساهمت في القاء الضوء على الكثير من العقائد والطقوس الدينية والأساطير.

سمات الأختام الإسطوانيةفي عصر الوركاء

•أنها كبيرة الحجم وطويلة وغليظة، أكبر عثر عليه من هذا العصر كان بطول ٨,٥ سم وقطر ٥ سم.

• أن المشاهد المنقذة عليها كانت مشاهد دينية وأسطورية فضلاً عن موضوع الصراع بين الحيوانات.

•نفذت المشاهد بالأسلوب الواقعي والبعض منها بالأسلوب التجريدي.

نشاهد في أحد الأختام أسطوانية مشهد ديني آخر يتمثل في قارب كبير جداً ويوجد شخص في مؤخرة هذا القارب وشخص آخر يحمل بيده المجداف وأمام القارب يجلس شخص يمسك بيده عصا لتحريك القارب. أما في الوسط فهناك شخص كبير وأمامه رمز ثور وفوق راسه منصة متدرجة تحمل راية وأمامه يقف شخصية أو أمير منفذ بحجم أكبر وعلى رأسه عمامة ويتدلى شعر رأسه على كتفه والأيدي متشابكة على صدره وعنده لحية كثة وصدره عارٍ ويرتدي وزرة طويلة، ويوجد خلف الرجل نموذج لواجهة المعبد. ينظر الشكل الآتي :

وهناك مشاهد أخرى منها إطعام الحيوانات في مشهد طقوسي. ينظر الشكل الآتي:

تتشابه الأختام الأسطوانية من عصر جمدة نصر مع سابقاتها من عصر الوركاء في الشكل وفي الموضوعات التي تحملها. عملت الأختام الأسطوانية من هذا العصر بأسلوب مميز من خلال نقش الأشكال من خلال الاستعمال البسيط للمزرف والقطع بالدولاب الدائري من أجل حفر دوائر وخطوط على سطح الختم، والتي تمثل أشكال أو تركيبات هندسية وأشكال حيوانية ومشاهد مختلفة أخرى. ينظر الشكل الآتي :

هذه الأختام أصبحت تنتج بوفرة، وتزودنا بمعلوماتٍ عن الطقوس، كذلك يمكن التعرف على بعض الجوانب الدينية من خلال بعض المنحوتات، وخاصة المشاهد المتعلقة بالإلهة(انانا) إلهة الخصب، أو مشاهد تمثل الملك الكاهن منتصراً وأمامه الأسرى مكبلين ويساقون من قبل جند الملك. ينظر الشكل الآتي: